من أين هدوك هذي الساعة

عبد الرزاق عبد الواحد

صوت:
لأني فرّقتُ في الناس لحمي
لأني حملت عذاباتهم
لأني تسمَّيتُ باسمي

صوت:
لأنَّ المسافة بين الرصاصة والقلب ضيقةٌ
لأنَّ الذي يقطع الدرب بين القتيل وقاتلهِ
شاهدٌ وقتيلْ
صرتُ في زمني الشاهد المستحيلْ

صوت:
ملعونٌ من يمسك للقاتل جذعَ المقتولْ
ملعونٌ من يخدع إنساناً عن عينيه
أو عن كفّيه
ملعونٌ من يأمن ذئباً في مرعى
يا أولاد الأفعى
ألفي عامٍ أبحث عن رأسي بين الأكتاف وبين
الأرؤسْ
كم جسداً مثلي يسعى

طفل:
يا يوحنّا خذ مني شفةً

طفلة:
يا يوحّنا خذ مني عيناً

صوت:
يا يوحنّا.. أرشد كتفيَّ إلى رأسي
كم جسداً مثلي يسعى
كم جسداً مثلي يسعى

★ ★ ★

منذورٌ هذي الليلة للأحزانْ
منذورٌ أفتح أبوابي لطيور الغربه
أمنح أهدابي لنعاسٍ لا أعرف آخرهُ
موحَشةٌ روحي
موحَشةٌ حتى الأرض التحضنني الليلةَ

آهٍ من لحظاتٍ تسبق صحوتكَ الكبرى!
منذورٌ هذي الليلة للقلق الأكبرْ
منذورٌ أن أختليَ الليلة بالموت
ويختليَ الموت الليلة بي
وأنا المبتور القدمين أعالج نقطة مرتكزي هذي الليلةَ
منفرداً
ممتلئٌ بالصمت، وممتلئٌ بالمجهول
وممتلئٌ بجميع الأشياء اللاممكنة الليله
وحسبتَ بأنك تعرف
أبصرتَ الناس يموتون فأنت إذن تعرف
ماذا تعرف عن لغةٍ لا يتكلمها إلا موتك في هذا
الليلْ؟
لو تملك يا مجذومَ القدمين وقوفاً لحظتَها
لا تتأرجح أو تنكبُّ على وجهك
من يدري؟
سيقولون من الخوفِ
يقولون من اليأسِ
وتعلمُ أنك منذورٌ وقبلتَ بنذركَ
والناس يقولون يقولون...
لو تملك أن تركض للموت فتختصر الدرب
وتختصر الخذلانْ!
منذورٌ هذي الليلة للأحزانْ
منذورٌ أُذبَحُ هذي الليلة
فأنا أبحث عن قبلتيَ السَّأموتُ عليها
وعزيزٌ أن أُقتَل بين الشكِّ وبين الإيمانْ
قيلَ انشرْ عينيك على الأفق الغربيّ
وترصَّدْ نجماً
إن صدق العرّافون نبوءتهم
يظهرْ هذي الليلة فوق الأفق الغربيّ
إذا انتصفتْ هذي الليلةُ فانظرْ
فإذا انحاش النجمُ إلى زاويةٍ في الأفقِ وأخلدَ
مرتعشاً

وإذا الليل اصفرَّ فأبصرتَ سماءً من كبريتٍ مغلَقَةً كالمعدن
تتصعَّدُ فيها أنفاسُ النوَّمِ مثل دخانٍ أبيضْ
وإذا رانَ على كلِّ الأشياء نعاسٌ كالموتِ
فلا نأمة إلا خفقانُ النجمِ المذعور على الأفقِ
وإلا خبطُ جُذاذةِ ساقيكَ على الأرضِ
فوَجِّهْ وجهك شطرَ الأفق الغربيّ
فقد صدق العرّافون نبوءتهم
وسيظهرُ فَصٌّ أسودُ
يسبحُ في وهجٍ أسوَدْ
فإذا أنشبَ عينيهِ بعينيك
فحدِّدْ حجمَ الموت المُقبل
ولعلَّكَ إن تبصرْهُ تجدْ ليقينكَ مرسى
ولعلَّك لا تأسى
أو تجد السلوى
ولعلَّ..
لعلَّ...
لعلَّ....
خدرتُ،
وغُيِّبتُ عن قلقي...
حين ينتصف الليل... •
بيني وبين انتصافك شوطٌ أموت به ألفَ موتٍ وأحيا..
وبيني وبين انتصافك صحوٌ
إذا عادني فمَن الضّامني أنَّ كفّي، لن
تتراعش بالكأس حتى لأرتاب أني سأشربها!
هلَعٌ تتحدث عنه عجائزنا بالهمس، وبالإيماءِ
وإذ يُسألنَ يبسملنَ ويطرقنَ الأعينْ
ضحكتْ منكنَّ صبايانا
ورأيتُ بأعينكنَّ سياطاً
ورأيتُ إلى البسمات تفرُّ إلى الأطرافِ فتغدو
حركاتٍ متشنّجةً خجلى
وقرأتُنَّ دعاءً
واستغفرتنَّ لنا نحن الأغرارْ
نحن الما أبصرنا النجمَ الدمويَّ فما نعلمُ ما يعني نجمٌ
دمويٌّ يظهر في الأفق الغربيّ!
من أين هدوؤك هذي الساعة؟!
لو كنت تمدَّدتَ مع الزمن المتبقّي من عمركَ طولاً
لترهَّلْتَ إذن واتَّسعتْ كلُّ خلاياكَ
فما أحستَ بما ينفذ في لحمكْ
ترفض أن تقطع عمرك إلا عمقاً
ليكنْ
وتأمَّلْ سكّينَك كيف تقطّع كلَّ شرايينكَ وهي تغوص
إلى آخر لحظات العمر!
من أين هدؤوك هذي الساعةَ
أنت المترصّد موتكَ
أو سبباً يجعل موتك أنضج في عينيك...
- أيُّها الرجل المبتلى
نذر الناسُ نجماً
وأنت نَذرتَ لنجمٍ، وبينكما ليلةٌ
أمنت تعلمُ
- أعلمْ
- عقدوا الخيط سبعاً
وإذ رفعوا عنه أيديَهم
حلَّت العُقَدُ الستُّ أنفسَها
أنت تعلمُ
- أعلمُ
- فانظرْ، فبينكما ليلةٌ
- هي كلُّ المدى
وما بيننا عقدةٌ
هي كلُّ المدى
بالنَّواجذِ حاولتُها
قلقُ العمرِ جمَّعتُهُ في أظافرِ كفيَّ
- ندري
- وكنت بصمتي أدافعُ
- ندري
ولكنّها ليلةٌ
- آهِ، مَن يملك الصَّبرَ لوزَتُهُ جحظَتْ، حولها عَقدةٌ؟
آه من يملك الصمتَ منذبحاً بين نجمينِ كلٌّ يُمنّيهِ
موتاً؟!
وفي كلِّ يومٍ، أصوّرُ نفسيَ ميتاً على هيأةٍ
ثم أرفضها..
أفأحمل قبري
أطوف بهِ
أسأل الناس:
يا مَن يفصِّلُ لي ميتةً؟!
أيُّها الجسدُ الربُّ
هذي يدٌ أنكرتْها جميعُ النبوآت
تضرعُ أن تتقبَّلَها
إنني أتحسَّسُ أطرافَ كلِّ المسامير في لحمكَ الحيّ
فامنحْ يدي جرأةً تتحسَّسُ نفسَ المواضعِ في جسدي
أنا أعلمُ أنَّ المسامير في جسدي سوف تصدأ
أعلم أنّي أرفرفُ ثانيةً ثم أهدأ
لا لحم يبقى
ولا رسم يبقى
وأنت هنا منذ ألفَين يا سيّدي،
كلَّ ليلٍ يُظلِّلكَ اللحم
حتى إذا أصبح الصبحُ تعرى!
منذ ألفَين تؤكلُ يا سيدي صامتاً
أفما آن تغضب الآن؟

أن تصرخ الآن؟
أن تتغيّر هذي الرسومُ التي أسلمتك
إلى الصمتِ أنْ...
- أيُّها المتأرجحُ في مَدرَج الموت
هل أنت وحدكْ؟
- مَن سائلي؟
- إن يكنْ معك الآن من شاهدٍ فليقوِّمْكَ
- ليس معي غير نفسي
- تجنَّبْ إذنْ.
يتقدمُ مَن جاء يسعى بشاهده
- أيُّها الصوْت..
يا لغةً شابَ رأسي عليها
يا نداءَ الدروب التي ضيَّعتني
يا لغةً قتلتني
كنْ أنت لي شاهداً...
أنت ترفضُ أدري،
وما كان لي أن أرى عنقي تلتوي هكذا!
جئتُ أحمل جلدي،
لقد وشمَ الموتُ حتى منابتَ أظفارهِ..
أفتُغني شهادتُهُ؟
جئتُ أحمل عينيَّ
تعلمُ أنَّها أبيضَّتا فرط ما حملقَ الموتُ فيَّ وحملقتُ فيه
أيُغني حضورُها؟؟
ومعي جعبةٌ،
منذ قالت لي أمّي بأنَّ الأظافر تشهدُ يومَ القيامةِ
جمَّعتُها إظفراً إظفراً
أفتغني شهادتُها؟؟
أيها الصوت
يا أيها الـ...
هكذا؟!
فأنا لستُ أملك حتى بأن أدَّعي حقَّ موتي؟!
كان لي عَدَّ نبضي شهورٌ
وما أثبتوا أنني كنت أحيا!
مَن يُعير الذي يبحث الآن عن موتهِ شاهداً؟
يا يحيى
تملكُ عَدَّ مَنابتِ شعر الرأسي شهوداً
فاتركْ رأسَكَ لا تبحثْ عنهُ
فلو عاد إلى أكتافكَ تنكرُهُ الساعةَ
تَسألُ أن يُقطعَ
تُسألُ أن تحضرَ شاهدَ موتٍ
يا يحيى دع رأسَكَ
يا يحيى دع رأسكَ
يا يحيى دع...

* * *

ها هي الكأسُ تهمي
وما زلتُ في أوّل الليل
أيَّ الدروب سلكتَ فلم تعطِ موتَكَ فرصةَ أن يتخيَّرَ
يا سيدي؟
أنت أترعتَ كأسَكَ،
لم تنهمر قطرةٌ
وأنا،
نصفُ كأسٍ،
ومن أوّل الليل تهمي
والمسافةُ يا سيّدي جدُّ شاسعةٍ
هي مرتكزي
وهي منتصفُ الليل
والكوكبُ الدمويُّ الذي
والذي ربّما..
والهواجسُ يا سيّدي
كلُّ هاجسةٍ أمَدٌ
كلُّ هاجسةٍ عِدل دهرٍ من الموت
أيَّ الدروب تخيّرتَ فاختصرتْ لغةُ الموت فيكَ تفاصيلها؟؟
أيتُها الكأس،
محكومةٌ أنتِ أن تُشرَبي للقرار
فلا ترجفي
أيتُها العين لا تطرفي
ندفعُ الخوف بالموتِ
أو ندفعُ الموت بالخوفِ
تلك قضيَّتُنا نحنُ
كلُّ النبوآتِ عاجزةٌ أن تسمّيَ ميتاً بلا شاهدٍ
فأنا مُرجأٌ
مُرجأٌ أن أعيشْ
مرجأٌ أن أموتْ
مرجا مرجأٌ مرجأٌ
أيُّها المّيتون بلا شاهدٍ
تُرفضُ الآن ميتتُكم
فاحملوا فضلَ أكفانكم
واتبعوني لمنتصفِ الليل هدا
ثم موتوا شهوداً على بعضكم!
أيها الميّتون بلا شاهدٍ
إتبعوني لمنتصفِ الليل هذا
إتبعوني لمنتصف الليل هذا...

عبد الرزاق عبد الواحد